

أثر المرأة

في علي محمود طه

للأستاذ إدوارد حنا سعد

الحرمان من المرأة - كدافع نفسي - ليس خيراً في ذاته ولا شراً؛ ولكن الخير أو الشر إنما يتعلقان بالوسيلة التي يتبعها لإشباع رغباته : وهو في الفن خير محض لأنه كان نبهاً فياضاً استقى منه الملهمون وخرجوا على الناس بذخائر خالدة على الزمن والأدب المصري مدين للحرمان بنبوغ الشاعر الرقيق الأستاذ علي محمود طه ، فقد لى نفسه الحساسة فأذكى شاعريتها وصر على قيثارة الشاحي بأعذب الألحان

على أنه مما بلغت النظر في الأدب المصري المعاصر ذلك التباين الواضح بين مسألة أثر الحرمان في نتائج الأدباء المعاصرين ممن نسميهم شيوخ الأدب ... وعمقه ووضوحه في نتائج الطائفة التي تأخرت عنهم في السن أو تاريخ الظهور الأدبي ، ومراجع ذلك فيما أعتقد إلى تحجب المرأة قبل الحرب الماضية ، ثم ثورتها على الحجاب بعيد تلك الحرب ، واشتراكها في كثير من مناحي الحياة الاجتماعية

قد بنشأ الحرمان عن خيبة قوية في حب قوى فيكون من أثره ولوع صاحبه بإعلان عدائه للمرأة ، فإذا وجد أن في ذلك منافاة لما درج عليه الناس اندفع بطريقة لاشعورية إلى تسفيه الآراء الشائنة والتعالى بقيمته الذاتية . وأثر هذا الضرب من الحرمان شديد الوضوح في الأستاذ توفيق الحكيم عدو المرأة وصاحب الرأي المعروف في تفضيل الجاهلة على المتعلمة كزوجة ، وكاتب المقال الذي يقول فيه إن الزواج من أربع نساء أمر محتمة الطبيعة ، وذلك حين رأى التفكير متجهاً إلى سن تشريع يمنع ذلك إلا عند الميسرة وضمان العدل بين الزوجات . ثم يقول عن نفسه إنه (خالق) ، وعن الأشخاص الذين يصورهم في قصصه إنهم مخلوقاته ، ويقول عن أحد قرائه (زارني هذا الطبيب الفاضل ثلاث مرات دون أن يحظى برؤيتي)

وقد يكون الحرمان ناشئاً عن خيبة في إنشاء علاقات غرامية في فجر الشباب ، فيولع صاحبه بالتحدث عن علاقات غرامية

موهومة أو مبالغ فيها ؛ وقد يصدر كتاباً - كما فعل الأستاذ الصاوي - يتحدث فيه عن حياة قلبه وتكون عناوين فصوله : « وأما السابعة ... وأما الثامنة . . وأما التاسعة » .

وقد يولع الشاب بفتاة من طبقه معينة ولا تستجيب لغرامه فيكون منه قصصى كالأستاذ محمود كامل معظم بطالات قصصه من خريجات المدارس الفرنسية ، وكلهن من بنات الباشاوات وعلى الأخص كبار الضباط المتقاعدين . ولكل فتاة من هؤلاء يحب يشترط فيه أن يكون محامياً له إلى جانب مهنته شهرة أدبية أو فنية وله سيارة صغيرة يقودها بنفسه

هذه المقدمة لازمة لكي نفهم منها وانحاً أثر المرأة في الأستاذ علي طه ، ففي نفسه الشاعرة رواسب من حب خاب ، وعلاقات فشل في إنشائها ، وطبقة لم تلتفت إليه بناتها هي على الأغلب طبقة الفنانة . هذه الرواسب كونت منه رجلاً فيه من توفيق الحكيم بعض تعاليه ، وفيه من الصاوي بعض تفاخره ، وفيه من محمود كامل اهتمامه بطبقة معينة تبدو من كثرة حديثه عن مخادع المغنيات والراقصات

وقد امتزجت هذه العناصر وتفاعلت فإذا به في شعره - وقد يكون في حياته الخاصة - زير نساء يطلب المرأة لأنها إحدى النساء ، وليس بماشوق يميز امرأة واحدة من دون النساء (١)

والمفروض في زير النساء أنه رجل مستهتر ، قوى ، كثير التنقل بين (الحبيبات) ، مشغول البال بالمرأة ، شديد الالتفات إلى نواحي جمالها وزينتها ، محبوب منها وأنيق

وكل هذه الصور واضحة في شعر علي طه وتتره أشد وضوح فهو مستهتر لا يبالي أن يقول :

حلفتُ بالخير والنساء ومجلس الشعر والفنساء
أقول :

فاعذري الروح إن طنى واعذري الجسم إن نار
نمر ناضج الجسني كيف لا تقطف الثمر
وهو رجل قوى ، استغفر الله بل فتى قوى ، يقول عن زملائه ركاب السفينة « كانوا يمججون من هذا الفتى الأسمر الذي يقتحم غرفة المائدة ليلاً معدته بالطعام بينما هم مستلقون على ظهورهم

(١) للأستاذ العقاد في كتابه شاعر الغزل بحث طريف في هذا الموضوع ، أرجو أن يعود إليه من قاته الاطلاع عليه

الطنين عشر، وقصت جانبيه على طريقة القرن العشرين « ويقول عن أخرى إنها « ارتدت زى القرويات من سكان الأديج الأعلى وغطت رأسها بمنديل أحمر موسوم بصور متناسقة لزهرات برية » أما أنه محبوب من المرأة فشاهد ذلك كثيرة في دواوينه وكتبه وأجترى هنا بمقتطفات من حديث نشره بمجلة الإثنين عن ذكريات الصيف، تحدث فيه عن جارة له في الفندق قابلته في الردهة ... « لم يطل بي النظر ولم يطل بها الوقوف، فقد ابتسمت لي وأحيت رأسي تحية لها، وسرعان ما وجهت لي عبارة لطيفة قائلة :

— منذ أمس وأنا أعجب من هذا الغريب المنفرد بنفسه الذى لا يجد في هذه المدينة الصاخبة اللاهية ما يريحه عن النوم ويشغله إلى ما بعد منتصف الليل . أقول هذا وأتساءل كيف لا أعجب من نفسى أنا أيضاً، فقد حضرت ليلتين، فلم أجد ثمة حذاء واحداً على باب واحد، ووجدت حذاءك منفرداً بنفسه على باب غرفتك . وقلت لنفسى وأنا أضع بدورى حذاءي على باب غرفتي، فليظل الحذاءان هكذا قريبين من بعضهما في الليل وإن لم يتعارفا . وفي الحق أنى عند ما أغادر غرفتي إلى الحمام في الصباح الباكر أجد أن منظر الردهة قد تغير، فأمام كل باب حذاءان أحدهما ضخم خشن، والآخر دقيق رقيق، فأحدث نفسي لم لا يتفق حذاءانا نحن أيضاً فنجدهما ذات صباح على باب واحد ... » فيما أشد إغراء هذا الفتى الأسمر، لقد أنسى تلك الحساء أنها امرأة يسرها أن تُصاد وأن ترى الشاب منصوبة من حولها ... أنساها هذا وأنساها حياءها الغريزي فبدأنه بهذا الحديث الطويل واقتربت عليه أن يشاركها غرفتها .

بقى الحديث عن الصفة الأخيرة وهي الأناقة وتكاد تكون أظهر صفات شعره الموسيقى العذب، ثم هي تبدو أيضاً في طبع كتبه وتقديم قصائده، ويرجع السبب في شدة وضوح هذه الصفة إلى أنها ارتوت من رافدين نبعا في صدر شبابه : أولهما الحرمان الجنسي، وثانيهما الحرمان الأدبي، لأن المجد الأدبي لم يوات الأستاذ على طه في السن التي كان ينتظره فيها، بل تأخر عن ذلك . وفي مقال الأستاذ الزيات عن « أرواح وأشباح » ما يكشف عن ذلك الجانب، فهو يقول إنه منذ إحدى وعشرين عاماً كان يشرف بالاشتراك مع حضرة الأستاذ الجليل الشيخ

من دوار البحر أو ممسكون بمعداتهم من الألم والاضطراب ! » ويقول :

الثلاثون قد مضت في التناهات والهذر فيذه الصورة قد تنفق مع صورة دون جوان، ولكنها قد لا تنفق مع الحقيقة . ففي مقال الأستاذ الزيات عن أرواح وأشباح يقول : « وبين اللقاء الأولى للصديق والقراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة . » وكان إذ ذاك في إبان شبابه وكنت في عنفوان شبابي « ومن هذا يتضح أن لفظة (الثلاثون) هذه لم تأت إلا لضرورة الشعر

ثم هو رجل كثير التنقل بين الحبيبات، فهو في الجندول مع البولونية الحساء، وهو في بحيرة كومو مع الأدبية الأمريكية الفاتنة، وهو على الرين مع « صديقة سويسرية التقى بها في ذلك الجو الساحر الخ ... وهذا بالطبع عدا عذارى وادى النخيل وقاهرياته الغرر

وهو مشغول البال بالمرأة يغازلها في كل مكان؛ وقد يغازلها وإلى جانبها زوجها (الليلة الأولى في أرواح شاردة) وكتبه كلها فياضة بهذا الاهتمام الذى يقيمه ويقعده؛ ولكي أود أن ألت النظر إلى نشيده الأفريقي (عودة المحارب) الذى يقول فيه : حين ألقى زوجي على باب كوخى وأناغى على ذراعى طفلى فهذا التصوير الصادق للقلب الضمآن إلى حنان الأمرة لم ينبج من سمادير الاهتمام بالمرأة على العموم، ذلك الاهتمام الذى يملأ قلب الشاعر، فيقول على لسان ذلك المحارب العائد إلى زوجته وطفله :

يا عذارى القليل أنتن للمجد (م) على عفة صواحب بذل حسب روى الظلمى وحسب جراحي

رشقة من عيونكن النجل وابسما ماكن فوق شفاه بمعاني الحياة كم أومات لي وصحيح أن البطل العائد يسر بالحفاوة التي يلقاها من قبيلته رجالها ونساءها، ولكن لعل حفاوة الرجال به أبعد لسرويه، وأقبح لمكان الزهو في نفسه .

ونستطرد في توضيح الصورة التي أوجزناها في مقدمة حديثنا فنقول إن التفاته إلى نواحي الجمال في المرأة كثير في شعره ونثره إلى درجة أستطيع لنفسى معها أن أغفل إيراد الشواهد عليها، والتفاته إلى زينتها دقيق « صفت شعرها على طريقة القرن

نفسه بقوله « الشاعر » ، فهو بهذا وذاك يمدح نفسه وشاعريته عن طريق غير مباشر ولا شعورى
 وألاحظ هنا كثرة لجوء الشعراء الشبان إلى الحديث عن أنفسهم بقولهم : « زار الشاعر قرية كذا وقال فيها » مثلاً ،
 والشاعرية كوهبة لا يجوز أن يفخر بها صاحبها بل يدع للناس أن يتحدثوا عنها ويمدحوه بها وإلا جاز لكل صاحب موهبة أن يتحدث عن نفسه فنسمع مثلاً « قال الذكي في حديثه » أو « قهر القوى خصمه في الملاكمة » ولن يكون هذا أغرب من ذلك
 وأعود فأكرر ما قلته في أول هذا المقال من أن الأدب العصرى مدين للحرمان ينبوغ الشاعر الموهوب الأستاذ على محمود طه وبضلال الملاح النائه في بحار الجمال والخيال ، وهو ضلال حبيب إلى النفوس الرهفة الحس ، وهو أعود بالفائدة من هداية القابعين المترمين .

أوداد هـ

(الاسكندرية)

إلى حضرات المشتركين بالتفسيط

لقد رفنا نحن العدد من الرسالة ابتداء من شهر مارس الماضى إلى ١٠ مليا ، والاشتراك في مصر إلى ثمانين قرشاً ، وفي الخارج إلى جنيه مصرى . أما المشتركون من قبل أول مارس فقد بقى اشتراكهم كما كان : ٦٠ قرشاً في مصر على شرط أن يسدد المشتركون بالتفسيط قيمة أنساطهم في أول شهر مايو المقبل وإلا عوملوا معاملة المشتركين الجدد

صدر مبرئاً كتاب

إبليس يغنى

لمؤلفه

صلاح الدين المنجد

لون طريف من الأدب الحديث

وصفحات ممتعات من الحب والفن والجمال

يباع في المكتبة العربية بدمشق

وثن النسخة عشرون قرشاً عدا أجرة البريد

مصطفى عبد الرازق على قسم الشعر في مجلة السفور ، ودفع إليهما البريد بقصيدة لمل طه « فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطني على ضعف الناشئ البادى » ، فضننا بها على السل وحمحننا ما فيها من الخطأ وقدمت لها ببضعة أسطر تنبأت فيها بنبوغ الشاعر ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن ...
 ثم لقيه في المنصورة ... « وطلب إليه صديقنا أن ينشدنا بعض شعره فنشط لهذا الطلب وارتاح كأنما نفسنا من كربه أو خفقنا من عبثه ، وقال : نشرت لى السفور هذه القصيدة وقدمت لها بهذه المقدمة ... ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب ... » وكان حين عرفته في إبان شبابه وكنت حين عرفني في عنفوان شباني «
 ففي هذه الأسطر نرى على طه وهو ناشئ مغمور ينشط لإلقاء شعره وبرتاج ، ويحفظ عن ظهر الغيب مقدمة فيها تنبأ ونصيحة ، ثم يعرف صاحب هذه المقدمة التي احتقن بها كل الاحتفاء فإذا هو شاب لا يكبره كثيراً في السن . وتلك مقدمات تصل إلى نتيجة واحدة هي شدة إحساسه بأنه مغمور وأن قريحته في حاجة إلى أن يرفدها بمادة اللغة وآلة الفن . وربما تأثر بأسلوب الزيات الأنيق ، فما زال يتحرى الأناقة ويتوخاها حتى أصبح أكثر الشعراء المصريين أناقة غير مدافع . وقد واتته الشهرة الأدبية سخية فياضة ؛ ولكن نفسه الحساسة لم تسلم وما كان لها أن تسلم من عقابيل هذا الشموخ القديم ، فيقول في مقدمة إحدى قصائده : « ألقاها الشاعر في حفل كان من خطباته الأساندة الأجلاء : لطفى السيد باشا ، الدكتور طه حسين بك ، مصطفى عبد الرازق بك ، أنطون الجليل بك » .
 وقد جعل هذا دأبه في تقديم كل القصائد التي ألفت في حفلات عامة كأنه يستكثر بطريقة لاشعورية أن يلقى شعره بين هؤلاء الذين كانوا يملأون أفق الأدب أشعة وشهرة وهو ناشئ مغمور في المنصورة . بل هو يلجأ إلى أغرب من ذلك في تقديم الجنودول « تفريدة الموسيقى الكبير محمد عبد الوهاب » كأن عبد الوهاب لا يتغنى إلا بجيد الشعر ومختاره ، مع أنه غنى الجنودول وغنى بعدها « متهونش » ، « وبلاش نبوسنى »
 وهذا الأثر الذي أحدثت عنه يبدو كذلك في كثرة حديث الأستاذ على طه عن الشاعرية ومتاجاته لها في « ميلاد شاعر » و « غرقة الشاعر » و « قبر الشاعر » ... ثم في حديثه غير